2- المحاضرة الثانية:

مشكلة المنهج

يقدم لنا ديكارت في كتابه "مقال في المنهج"[1] 1637 مبادئ (منهج) تعمل على توجيه العقل في مجال العلوم، وترتكز هذه الطريقة (منهج) على منطلقات عقلانية تعمل على رد المعقد من الأفكار إلى ابسطها، أي (التحليل)، وعلى العكس من ذلك، بالنسبة للإدغار موران Edgard Morin في كتابه المنهج Méthode بأجزائه الخمسة 1977-2001، والذي قدّم لنا فيه مشروع "ترميم الفكر" بغية القبض والوقوف على تعقيد الظواهر الإنسانية.

هو ذا المعنى الأول الذي يمكن أن نعطيه لكلمة "منهج": إنه الطريقة العامة، أو الخطوات العامة، للتفكير في المجال العلمي. لقد عمل العالِم الاجتماعي دوركهايم Durkheim في هذا الاتجاه، حين قدّم لنا في كتابه: قواعد المنهج في علم الاجتماع 1895.

من جهة أخرى، نقصد بالمنهج بعض تقنيات التحري في مجال البحث. في هذه الحالة، يمكن الحديث عن:

- منهج التكميم (الإحصاء، استبيان، مقارنة إحصائية، روائز...)
- منهج التنويع (قصة حياة، ملاحظة تساهمية، مقابلة غير موجهة....)

لا شك أن القرن 17 يمثل عصر التصحيح المنهجي، لذلك شكل منعرجا مهما في البحث عن أفضل الطرق للبحث عن الحقيقة[2]، وبذلك تجاوز ما كان يدور من سجال بين المدرسيين في الفكر المدرسي. كان هدف ديكارت هو إيجاد منهج شامل للبحث عن الحقيقة من خلال محاولة إقامة مذهبا فلسفيا لنفسه، وقد اعتبر آنذاك أسمى الحلول، وافضل السبل لتجاوز العقبات الابستمولوجية، لذلك شكل ما يكن أن نسميه، تحولا إبستيميا، وميتودولوجيا (معرفيا ومنهجيا)، وهذا ما يدل عليه كتابه " مقالة في المنهج" أو "حديث الطريقة" والذي يقول فيه:

"ولكني لا أخشى أن اقول ما أعتقته من أنني كنت كثير التوفيق، إذ ألفيت نفسي منذ الحداثة في بعض الطرق التي قادتني إلى أنظار وحكم، ألفيت منها منهجا، به يبدو لي أن عندي ووسيلة لزيادة معرفتي

---

1 ديكارت، مقالة المنهج

2 ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، تونس، 2001، ص 39.

بالتدريج، وأن اسمو بها قليلا إلى أعلى درجة يسمح ببلوغها ما في عقلي من ضعف، وما في مدى حياتي من قصر، ذلك لأنني جنيت من ثمارات ذلك المنهج ما جعلني أحاول دائما في الأحكام التي أكونها عن نفسي، أن أميل إلى جهة الحذر أكثر من ميلي إلى جهة الغرور"[3].

بالرغم من هذه المحاولة إلا أن الفلاسفة والعلماء حديثا، أرادوا الاستفادة من المنهج المطبق في العلوم التجريبية من أجل تجاوز الكثير من المشكلات، وذلك بتبني الاستقراء (المنهج التجريبي)، والذي كان من دعاته فرنسيس بيكون F .Bacon من خلال كتابه الأرغنون الجديد Nouvel organon أو Novum organum 1620، كرد فعل على الأرغنون القديم أي المنطق الأرسطي، والذي اعتبره عقيم لأنه يحرص على تطابق العقل مع نفسه ليس إلا.

فإذا كان الاستقراء منهج العلوم المادية التي به تمكنت من تجاوز الكثير من المشكلات المعلقة، فإن هذا المنهج بالرغم من محاولة تكييفه مع بعض الظواهر (كالظواهر الإنسانية مثلا)، إلا أنه لم يمكن علماء هذا المجال من إدراك حقيقة هذه الظواهر. ويبقى المنهج اليوم في صميم النقاشات خاصة في مجال دراسة بعض ظواهر الكون، والإنسان على حد سواء، لذلك يقال اليوم **يتفوق المنهج عن العلم**.

– الغاية:

تحاول كل العلوم على اختلاف طبيعتها وموضوع دراستها، ومنهج التعامل معه، والنتائج التي تهدف بلوغها، تحاول تقديم تفسيرات للظواهر التي تتناولها بالدراسة.

يبقى أن هذه الغاية، إذا كانت ممكنة في بعض العلوم، وهو الشأن بالنسبة للعلوم الطبيعية، فهي صعبة، وفي كثير من الأحيان مستحيلة التحقيق في البعض الآخر من العلوم، وهو حال العلوم الإنسانية والاجتماعية. ويجم عن ذلك إمكانية تحقيق الغايات كاملة بالنسبة لبعض العلوم، كعملية التنبؤ العلمي بحدوث الظواهر، أو مراقبتها، وهذه الغايات متعذر تحقيقها، خاصة في العلوم الإنسانية. لذلك نجد دلتاي Wilhelm Dilthey (1833-1911) يميّز بين الغايتين وذلك بتمييزه بين المنهجين، في العلوم الطبيعية والعلوم الإنسانية. بحيث ينسب التفسير كغاية للعلوم الطبيعية، والفهم كغاية للعلوم الإنسانية[4].

---

3 ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية للكتاب، 1985، ص، 163.

4Wilhelm Dilthey, Le monde de l'esprit, Paris, Edition Aubier, 1947, pp 150-151.

بالرغم من أن التفسير يبدو كهدف وحيد للعلوم إلاّ أن ليس كذلك، فإلى جانب التفسير L'explication هناك غايات أخرى، وهي **وصف** Description و **تصنيف** Classification الظواهر. لا يمكن تصور قيام نظرية علمية دون أنتكون لها القدرة الشارحة والتوضيحية للظاهرة.

هناك موقف لا يرى في غاية العلوم إلاّ تقديم تفسيرات للظواهر، مع إعطاء معنى للتفسير، إلاّ أن هناك من الفلاسفة من يعارض هذا الموقف أمثال دوهيم(دويم) Pierre Duhem (1861-1916) وذلك بتقديم معنى آخر للتفسير في كتابه La théorie physique « *Son objet et sa structurez* » 1906. ، التفسير بالنسبة له هو تجريد واقع المظاهر الذي تغطيها كالحجاب، لكي نرى هذا الواقع وجها لوجها في صورته العارية. فهو يعتقد أن الإدعاء بتقديم تفسير تام ويقيني للظاهرة، هو مجرد ضرب من ضروب النظرة الميتافيزيقية، لأن مفاتيح التفسير اليقيني للظواهر لا يوجد إلاّ في عالم الميتافيزيقى. هذا الموقف قريب من اعتقاد الفيزيائي أرنست ماخ Ernest Mach.

لو اعتبرنا أن غاية العلوم هي تقديم تفسير للظواهر، فلا بد من أن يتوفر في التفسير شروط، منها:

– أن يكون لغاية معرفية إبستمية.

–يقدم لنا تفسير لما يحصل (لما هو حاصل).

– أن تمكننا من التمييز بين التفسير الجيد والتفسير السيئ، الصحيح والخاطئ.

– أن يمكننا من التمييز بين التفسير العلمي وغيره من التفسيرات (الدينية، أو العامية)[5].

5 Anouk Barrerousse & Autre (Sous la direction), Précis de philosophie des sciences, Paris, Vuibert, 2011, pp 23-24.

مراجع المحاضرة:

[1] ديكارت، مقالة المنهج

[2] ديكارت، قواعد لتوجيه الفكر، ترجمة سفيان سعد الله، دار سراس للنشر، تونس، 2001، ص 39.

[3] ديكارت، مقال عن المنهج، ترجمة محمود محمد الخضيري، الهيئة المصرية للكتاب، 1985، ص، 163.

[4] Wilhelm Dilthey, Le monde de l'esprit, Paris, Edition Aubier, 1947, pp 150-151.

[5] Anouk Barrerousse & Autre (Sous la direction), Précis de philosophie des sciences, Paris, Vuibert, 2011, pp 23-24.